# حياة الألفاظ

كلّما قلّبنا النظر في صفحة من صفحات معجماتنا شهدنا في عالم اللغة ما نشهده في عالم الطبيعة ، فانّ قوانين تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي تجري أحكامها على آفاق الألفاظ جريانها على آفاق الحيوان والنبات ، ألفاظ تموت وألفاظ تعيش ، ألفاظ تحافظ على أصول معانيها ، وألفاظ تتحوّل من معنى إلى معنى ، مرةً تنتقل من وجهٍ خاص إلى وجهٍ عام ، ومرّة من وجهٍ عام إلى وجهٍ خاص ، ألفاظ تشقى وألفاظ تسعد ، فاللغة لا تثبت على حالٍ ولا تجمد على وضعٍ ، وحركتها مستمرّة على تعاقب السنين ، ولعلّ الاستشهاد ببعض الأمور يوضّح لنا حياة الألفاظ أتمّ توضيح .

كنت أطالع الكامل للمبرّد ، فوجدت فيه أن حارثة بن بدر كان رجل بني تميم في وقته ، وقد غلب على زياد وغلب الشراب عليه ، فقيل لزياد إنّ هذا قد غلب عليك وهو مستهتر بالشراب ، أفلا تطرحه ، فلم يطرحه زياد لفضائل وآداب كان يراها فيه ، فلمّا مات زياد جفاه ابنه عبيد الله ، فقال له حارثة : أيها الأمير ! ما هذا الجفاء ، مع معرفتك بالحال عند أبيك ، أبي المغيرة ، فقال له عبيد الله : إنّ أبا المغيرة كان قد برع بروعاً لا يلحقه فيه عيب ، وأنا حَدَث ، وإنما أنسب إلى من يغلب عليّ ، وأنت رجل تديم الشراب ، إلى آخر هذا الخبر الذي يدلّ على عقل عبيد الله ، فالذي يهمنا في هذا المقام من الخبر كله إنما هو هذا المصدر : البروع ، في المعجم : برع ويثلث ، براعة وبروعاً ، فاق أصحابه في العلم أو غيره ، أو تمّ في كل فضيلة وجمال ، فهو بارع ، وهي بارعة .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البراعة والبروع مصدر واحد ، ولكن البراعة غلبت على البروع ، فماش هذا المصدر البروع حيناً من الدهر ثم حلّ محلّه أخوه المصدر الثاني : البراعة ، ودخلت البراعة في بعض علوم الأدب ، فقالوا : براعة الطلب وبراعة الاستهلال ، ولم يقولوا : بروع الطلب وبروع الاستهلال ، ولا يزال مصدر البراعة هو المستعمل في عصرنا ، وما أظن أن أحداً يميل إلى استعمال البروع بدلاً من البراعة ، ما عدا الذين يتوخون الحذلقة في الكتابة ، فيميلون عن ألفاظ مألوفة إلى ألفاظ غير مألوفة ؛ ولا ريب في أن الذين هم من هذه الطبقة في البيان يخرجون عن الطبع ويتكافون ، والكلفة لم تكن محمودة في عصر من العصور ، غاية الألفاظ أن يفهمها الناس ، فاذا قلنا اليوم : البروع ، بدلاً من البراعة ، أشكل على القارئ المعنى واستنجد بالمعجم ليبحث عن معناها ، لا شك في أن استعمال البروع صحيح لا لحن فيه ، ولكن اللغة لها قوانين ، فما كل صحيح مستحسن ، فمن الألفاظ الصحيحة ما مات وحلّ محلّه لفظ لا يزال يعيش ، من هذا القبيل : البراعة والبروع ، على أن البروع ليست ثقيلة حتى تقوم مقامها أختها البراعة ، فهي على وزن الطلوع ، ومصدر الطلوع عاش حتى وقتنا هذا ، وما دامت الشمس تطلع فهو سيعيش ، أمّا مصدر البروع فلم يكتب له أن يعيش إلاّ في بطون المعجمات ، وهكذا نشهد في اللغة حياة الألفاظ وموتها .

وإذا انتقلنا في هذا العالم الغريب ، عالم اللغة ، من الآفاق التي حلّت فيها مصادر محلّ مصادر ، إلى الآفاق التي انتقلت فيها معاني الألفاظ من وجهٍ إلى وجهٍ شعرنا بحركة اللغة المستمرّة .

روى صاحب الكامل أبياتاً في ذكر الابن جاء فيها :

فنفسي فداؤك من غائبٍ إذا ما المسارح كانت جليدا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال المبرد في تفسير المسارح : إنها الطرق التي يسرحون فيها ، واحدها المسرح .

في كتب اللغة : المسرح ، بالفتح ، المرعى ، والفعل سرحَ كمنعَ ، والمصدر السَّرْحُ ، وله معانٍ كثيرة ؛ وسواء أكان المسرح المرعى أم كانت المسارح الطرق التي يسرحون فيها إننّا نرى أن هذه المادّة قد توسّع عصرنا في معناها ، فاطلقها على مسمّى لم يكن له ذكر في الماضي ، فاذا قلنا في عصرنا : المسرح والمسارح ، عنينا بذلك مسمّى جاء به هذا العصر ، فالمسرح هو المكان الذي يتمّ عليه التمثيل ، وغلبت هذه المادة على هذا المعنى الحديث ، واشتقوا منها المسرحيات ، وهي الروايات التي تمثّل . لا ريب في أن المسارح بمعناها الأول لم تمت ، فهي لا تزال تعيش ، ولكنها لا تُفهم بهذا المعنى إلاّ إذا أُضيف إليها شيء ، فقلنا مثلاً : مسارح الغزلان أو مسارح النظر والخيال وما شاكل ذلك ؛ أمّا إذا قلنا : المسارح ، لا غير ، فلا نفهم من هذه المادّة إلاّ ما تقدّمت الإشارة اليه ، لا نفهم منها إلاّ المكان الذي يتمّ التمثيل عليه ، فهكذا نجد أن الألفاظ تنتقل على ترادف الأحقاب من معنى مقرّر إلى معنى حديث اقتضاه العصر .

وكما نجد أن بعض المصادر يغلب على بعضٍ وأن بعض الألفاظ ينتقل معناه من وجهٍ إلى وجهٍ فكذلك نجد أن طائفة من الألفاظ تشقى وطائفة تسعد ؛ فمن الألفاظ التي كانت سعيدة في ماضي دهرها تدلّ على معنى شريف ، ثم دار الدهر دورته فذهبت سعادتها وصارت إلى الشقاوة لفظ الجرثومة .

في الأغاني أن اسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك ، فاستنشده وهو يرى أنه ينشده مديحاً له ، فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم ، وبعد أن افتخر بكسرى وسابور الجنود والهرمزان قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

هناك إن تسألي تنبي بأنّ لنا جرثومة قهرت عزّ الجراثيم

في اللغة : جرثومة الشيء ، بالضمّ ، أصله ، ولا ريب في أن الشاعر استعملها في شعره في مقام الدلالة على العزّ ، إلاّ أنها انحدرت على تراخي العصور من مقام رفيع إلى مقام دنيء ، فإن الجرثومة في عصرنا تدلّ على أصل الأذى والضرر وما شابه ذلك ، وقـد نستغني عن إضافة الأذى والضرر إليها ، فاذا قلنا : فلان جرثومة من الجراثيم بلغنا من ذمّه كل مبلغ ، على أن من معانيها في اللغة ، التراب المجتمع في أصول الشجر ، وهذا المعنى ليس فيه شيء من العزّ ، ولكن كيف كان الأمر فقد استعملت في القديم بمعنى رفيع وانحدرت في الحديث إلى معنى دنيء ، فشقيت بعد تقلّبها في أعطاف السعادة .

ولقد أصاب مادّة العصابة ما أصاب مادّة الجرثومة من الشقاوة ، لمّا قال حسّان في بعض شعره :

لله درّ عصـابةٍ نادمتهم يوماً بجلّق في الزّمان الأوّل

لم يقصد بالعصابة إلاّ ملوك غسّان ، وما أدراك من هم ملوك غسّان وماهي مجالسهم وآدابهم في تلك المجالس ، فانحدرت لفظة العصابة من أفق الملوك إلى أفق السوقة ، ثم من أفق السوقة إلى أفق اللصوص وقطّاع الطرق ، فاذا قلنا : عصابة ، فانما نعني بها اللصوص وقطّاع الطرق ، فكثيراً ما نسمع في أحاديث بعض المجالس قولهم : عصابة لصوص ، أو عصابة من المستغلين أو أشباه ذلك .

وكما تنحدر بعض الألفاظ من أفق رفيع إلى أفق وضيع فكذلك ترتفع بعضها من معنى شقيّ إلى معنى سعيد ، من هذا القبيل لفظ الرّمق وبعض مشتقاته ؛ في اللغة : الرمق ، محرّكة ، بقيّة الحياة ، ومنه : عيش رمق ، ككتف ، ما يمسك الرّمق ؛ وما في عيشه إلاّ رمقة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالضمّ ، أي بُلْغة أو قليل يمسك الرمق . والرُّمُق ، بضمتين ، الفقراء ، المتبلغون بالرِّماق للقليل من العيش ؛ وهو مرمَّق العيش : ضيّقه أو خسيسه ، دونه . من هذا كله يتبيَّن لنا أن هذه المادّة وبعض مشتقاتها كانت تدلّ في الماضي على ضيق العيش وخساسته ، أمّا في الحاضر فانها تدلّ على سعة العيش ، فانّا نقول في دمشق ، في لغتنا العامّة : فلان مرمَّق ، كمعظَّم ، أي عنده كل شيء ، عنده دار يسكنها ، وعنده عقار ومال وما ماثل ذلك ، فهو في عيشة راضية ، في سعةٍ من العيش ، فهكذا نرى أن هذه المادّة انقلبت على الأيّام من معنى ضيق إلى معنى واسع .

★ ★ ★

وسواء أماتت مصادر أم عاشت مصادر ، وسواء أحافظت ألفاظ على أصول معانيها أم انتقلت من معنى إلى معنى ، وسواء أشقيت ألفاظ أم سعدت ألفاظ ، إنّا نشعر بالحاجة الشديدة إلى معجمٍ تفسّر فيه معاني الألفاظ على اختلاف التاريخ ؛ فاللفظ الفلاني كان له في العصر الفلاني معنى ثم انتقل في عصر آخر إلى معنى آخر ؛ واللفظ الفلاني عاش في عصر ثم مات في عصر ؛ إلاّ أن معجماً يشرح لنا الألفاظ بحسب تاريخها لا يسهل وضعه ولا يتمّ على أيدي أفرادٍ من علماء اللغة ، فلا بدّ له من معاونة الحكومات .

فلنتمتع الآن من مراقبة الألفاظ في آفاق حياتها .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net